وبين ما جاءت به الجغرافية اللغوية والمثالية مناقضتين لهذا الاعتقاد هو اختلاف المادة والميدان اللذين أجروا عليهما بحوثهم فأما اللهجيون فقد أجروا تحرياتهم على اللغات المنطوقة في صميم أراضيها وفي فترة زمانية قصيرة فوجدوها وقد اختلفت صيغ كلماتها اختلافاً شديداً فكانت الكلمة في هذا المكان من نفس اللهجة على صيغة ما وفي مكان آخر على صيغة أخرى. ومعنى هذا أنّهم تطلعوا إلى اللهجات في أثناء تحولها فشاهدوا بالعيان الفوضى التي يسببها التحول عند حدوثه بالذات فلم يعرفوا حالتها التي كانت عليها من قبل والحالة التي ستفضي إليها بهذا التحول. وأما التاريخيون فقد قارنوا بين النصوص التي كانت تمثل أطواراً من تاريخها فكان فيها الطور الذي تمّ وانقضى. فبمقارنتهم لهذه الأحوال المنقضية استطاعوا أن يستنبطوا قوانين مطردة إلى حدّ ما وهذا ممكن جداً بالنسبة إلى الأحداث الماضية التي أفضت إلى حالة معيّنة (لأن المنطلق والمنتهى معروفان). أما بالنسبة إلى الحالة الآنية (Synchronique) فغير ممكن لهذا السبب نفسه.

ولكن الذي سيوهن -بعد سنة 1920 لا قبل- النزعة المتصلبة في المدرسة التاريخية القائلة بأن «لا علم إلا في المنهج التاريخي» هي حركة أخرى محايدة تماما للحركتين اللتين ذكرناهما ظهرت في هذه الفترة نفسها وقامت بدور مهم جداً في تطوير المفاهيم العلمية، وعليها سيؤسس علم اللسان - في أحدث صوره- وعلوم وتقنيات أخرى بل و«فلسفة» القرن العشرين. وهي الحركة التي تسمى الآن بالبنوية.

- نشأة اللسانيات البنوية:

ظهرت حوالي سنة 1890م اتجاهات جديدة في التحليل العلمي للظواهر الاجتماعية وبصفة خاصة الأحداث الاقتصادية. وكانت في الواقع نتيجة لتأثر الأخصائيين في الأنتولوجية والأخلاق وشؤون الاقتصاد بما ظهر في أوساط القرن التاسع عشر من آراء فلسفية ومنهجية. وأهمّ هذه الآراء هي فكرة تقدم المجتمع على أفراده في الوجود أي سبقه الشخص، لأنّ الشخص كعنصر نفساني اجتماعي هو وليد الاجتماع والعمران. وهذه فكرة قديمة أيضا،

تعرض لها أمثال فون شليجل وفون هومبولت وقبلهما هردير وأسبقهم كلهم ابن خلدون. والذي وضّحها واحتجّ لها وجعلها ركناً أساسياً من أركان علم الاجتماع هو أوكوست كونت السابق الذكر. قال في خطابه عن **روح الإيجابية**: «إنّ الإنسان الحقيقي لا وجود له إنّما الموجود الإنسانية، حيث إنّ نشأتنا ونُمُوّنا كله راجع إلى المجتمع مهما كانت نظرتنا إليهما». وهي فكرة كارل ماركس (1818- 1883م) أيضا، إلا أنّه جعل كيفية الإنتاج العامل الوحيد لتطور المجتمع (قارن هذا بأقوال ابن خلدون) إذ يقول: «إن كيفية إنتاج الحياة المادية هي التي يتوقف عليها التطور الاجتماعي والسياسي والثقافي للحياة بأجمعها. فليس وعي الإنسان هو الذي يسبب وجوده، بل وجوده الاجتماعي هو الذي يسبب وعيه». ولا نحتاج أن نبيّن إلى أي حدٍّ أثّرَ هذا الكلام في جمهور المفكرين. فالماركسية ومدى تأثيرها شيء معروف. ولكن الذي يهمنا هو أن نعرف كيف صارت فكرة «تقدم المجتمع على الفرد» في العلوم الإنسانية وخاصة علم اللسان. فأما في علم الاجتماع فإنّ أكبر ممثل لهذا التيار (لا للماركسية في تعليلاتها الاقتصادية ولكن لفكرة كونت) هو العالم الاجتماعي الفرنسي المشهور اميل دوركيم (E. Durkheim: 1858 – 1917 م). فقد وضع هذا الرجل وجرد، على إثر كونت وماركس مفهوم «التصورات الجماعية» Représentations collectives. ولفت نظر اللغويين إلى أهمية العامل الاجتماعي. وكانوا قبل ذلك غير مبالين بدوره الخطير (باستثناء هومبولت وويتني كما رأينا) غير ناظرين في اللغة إلى الجانب الفردي سواء كان فيزيولوجيا أم سيكولوجيا. وتأكدوا أن تطورها إنما هو نتيجة لتحولات تحدث في مخارج الأفراد وفي أذهانهم ولم ينتبهوا إلى أنّ هؤلاء الأفـراد إنّما يكوّنون وحدة ذات شعـور «ووعي جماعي» (Conscience collective) كما يقول دوركيم. وفسّر هذا المفكر مفهوم التصور الجماعي بأنّه شيء زائد على مجموع الأفراد بل شيء خارج عن صفات الفرد ومكتسباته الخاصة به، فهو إذن كل صفة غير فيزيولوجية ولا عضوية يشترك فيها جميع الأشخاص بسبب اجتماعهم وتعايشهم. وكل ما يصدر عنه في داخل الجماعة ومن أجلها (كمجموع اعتقاداته وتصوراته وعواطفه ومنشآته وغير ذلك مما له علاقة بالجماعة التي يندرج فيها) فجوهره ليس طبعاً من

جنس الصفات الجسدية أو النفسانية التي تميزه عن الأفراد الآخرين. غير أنّ أهم ما جاء به دوركيم ليس التنبيه على هذا، لأنّ وجود مثل هذه الصفات الجماعية أمر تفطن إليه أكثر من واحد، ولكن القول بأنها سابقة لوجود الفرد وخارجة عنه - وباقية بعده- ثم القول بأنها جبرية وقسرية (مثل القوى العضوية) وأنّ للجماعة ضغطاً على الفرد (Contrainte sociale) فهو مجبر إذن على قبولها وإلا نفاه المجتمع أو ابتعد عنه بكيفية من الكيفيات[67]. ومن اللغويين التاريخيين الذين اتّصلوا بدوركيم واقتنعوا بسداد آرائه نذكر خاصة اللغوي الفرنسي أنطوان ميي (Antoine Meillet: 1866 - 1936م)[68]، فهو أول من اعتمد اعتماداً كلياً على مفهومي دوركيم اللذين ذكرناهما في تفسير تطور اللغة (وهو مع ذلك من أتباع النحاة المحدثين الأوفياء). ولم يهمل، رغم هذا، الجانب النفساني للغة، وإنّما جعله ينسجم بالجانب الاجتماعي، إلا أنّه أعطى لهذا الأخير الأولوية في غالب تفسيراته. وصرح بأهميته لأول مرة في مقالة كان لها صدى عميق Comment les mots changent de sens: (**كيف تتحول معاني الكلمات**)[69] يقول فيها: «إن اللغة حدث اجتماعي بالدرجة الأول»[70]. وبالفعل فإنّ تحديدها يناسب تماما التحديد الذي اقترحه دوركيم: فللغة وجود مستقل عن وجود كل واحد من الأشخاص الذين ينطقون بها رغم أنه ليس لها أي وجود في خارج المجموعة التي يتكون

---

67 - ووقع خلاف بين دوركيم هذا واجتماعي فرنسي آخر يسمى طارد (G.: Tarde 1843 - 1904م) في ماهية الظواهر الاجتماعية. فقال طارد بأنها أحداث تحصل بين الأفراد، وليست خارجة عنهم، وأن التقليد هو الذي يحدثها. وأجاب دوركايم بأن المحبة أو الكراهية والغيرة التي يكنها أو يُظهرها هذا الفرد لذاك ليست ظواهر اجتماعية بل فردية، لأنها تحصل بين الأفراد (interindividuel) ولا تكون ظواهر اجتماعية إلا إذا اعترت في وقت واحد الجماعة كلها أو أكثرها بسبب وعيهم الاجتماعي نفسه. وفي كلا القولين مبالغة، لأن الأول يتهاون حقيقة بقوة تأثير الجماعة ككل في الفرد وتأثير تراثها الاجتماعي الثقافي فيه أيضا. والثاني يتهاون في مقابل هذا بتأثير العلاقات الفردية في الشخص وفي الجماعـــة. والذي يجدر الالتفات إليه بالنسبة إلى موضوعنا هذا هو اهتمام سوسور بهذا الجدال. فقد ذكر دروزفسكي في: W. Doroszewski, Durkheime et Saussure, Journal de psychologie 1933 , p. 82 - 91 وكذلك: Le structuralisme linguistique et les études de géographie dialectale in Reports for the 8th Intern. Congress of Linguists , Oslo , 1957 , V.II. p.251 الهامش3، أن أحد طلبة سوسور أخبره بأن أستاذه كان يتتبع هذه المناقشة بعناية فائقة. ومهما كان من صحة هذا الخبر فإن ما يلاحظ من كلام سوسور من خلال دروسه عن التعارض بين الجانب الفردي والجانب الجماعي للظواهر اللغوية ليدل على وجود نفس الاهتمام عنده لهذا المشكل.

68 - سنعود إلى ذكره وذكر آثاره وتأثيره على المدرسة اللغوية الفرنسية فيما بعد.

69 - انظر مجموعة مقالاته: Linguistique historique et linguistique générale باريس 1968م ص 230 (الطبعة الأولى كانت في 1921م).

70 - من ذلك الوقت اعتاد الناس أن يقولوا «إن اللسان حدث اجتماعي» أو ظاهرة اجتماعية (سوسور). وأطلق البعض على هذه النزعة اسم الـــ Sociologisme (سماها معاصرونا «بالاجتماعوية» ونفضل لفظة اجتماعانية على مثال العقلانية والنفسانية)

منها هؤلاء الأشخاص فإنّها، مع ذلك، وبسبب شموليتها، خارجة عن كل واحد منهم. والدليل على ذلك هو أنّه ليس في وسع أيّ واحد منهم أن يغيّرها وأنّ كل تغيير فردي للاستعمال يحدث ردّ فعل: وأغلب ما يكون الجزاء في هذا الردّ السخرية التي يتعرض لها كل إنسان لا يكون كلامه مثل كلام الناس. فالصفتان اللتان حدد بهما دوركيم الحدث الاجتماعي أي وجوده خارج الفرد وقسريته هما ظاهران في اللغة ظهوراً بيّنا.

وفي هذا العصر أيضاً بدأت أفكار هومبولت وويتني تسترعي أنظار اللغويين (وغيرهم من المفكرين) وتستميل اهتمامهم. وانتشرت في البلدان الغربية بعد أن أصابها الكساد (إلا عند القليل) وأصاب أفكار هومبولت الخمول الكامل لعدم انسجامها مع التيارات السائدة في نهاية القرن التاسع عشر. وأقبل عليها الناس بل وتهافتوا عليها لأنّهم وجدوا فيها ما يبرر ارتياحهم لما وضعه منظرو النحو التاريخي من «عقيدة» لعلوم اللسان، ولأنّهم وجدوا فيها أيضاً ما يمكن أن يقوم مقامها أحسن قيام حسب ظنهم. ولم يَخِبْ في الواقع ظنّهم لأنّ هذه الأفكار كانت تمثل تماماً ما كان ينقص النحاة المحدثين. وأهمها هي النظرة الشاملة إلى اللغة، ثمّ النظرة الآنية غير التطورية لظواهرها. وههنا يجب أن نتذكر ما قلناه من أنّ اللغويين من أهل هذه النزعة كانوا رغم اطّلاعهم على فكرة العضوانية (Organiscisme) لا ينظرون إلى اللغة في أثناء تحليلاتهم لتطورها هذه النظرة الشاملة. أي يعالجون عناصرها لا باعتبارها أجزاء لكل، بل على أنّها أشياء يمكن أن تدرس على حدة ومنفصلة عن غيرها ظناً منهم أنّ اشتراكها في المجموعة لا يؤثر في كل واحد منها ولا يزيد شيئا على مجموع صفاته. ومعنى هذا أنّ المجموعة عندهم إنّما هي نتيجة لضم شيء إلى شيء فقط. وهم في ذلك تابعون لأفكار الانضماميين[71] الذين قالوا في القرن السابع عشر والثامن عشر بأنّ الوعي والظواهر النفسية إنّما تنتج عن انضمام الأحاسيس والصور الذهنية بعضهما إلى بعض وإنّ هذه

---

71 - Associationisme نفضل هذه اللفظة على الكلمة التي اقترحها علماء النفس، وهي الترابطية لأن الترابط قد يُفهم منه معنى التلازم في الوجود والتأليف، وليس هذا مقصودهم، لأن اجتماع العناصر عندهم هو مجرد انضمام. وأصل هذه الآراء يرجع إلى التجريبيين الحسيين الإنجليز(Locke مثلا: 1632- 1704م). والذي نظّر هذه النظرية هو دافيد هيوم (D. Hume: 1711- 1776م) واعتمدها كل العلماء في القرن التاسع عشر لا سيما تين Taine في الأدب، وفونت Wundt في علم النفس).

الأحاسيس هي في الواقع «ذرات» للوعي ويجب أن تدرس على حدة ولا يلتفت إلى مجموعها الذي هو الشعور، لأنّه ليس الأصل[72]. فهذه الفكرة مع ما تبعتها من مناهج تحليلية مجزئة غير ملتفتة إلى صورة التركيب لم يرتح لها الجيل الجديد من الباحثين خصوصاً بعد تأثرهم بأفكار الاجتماعيين وما وجدوه في كتب فون هومبولت وويتني وما رأوه أيضاً من اهتمام الفيزيائيين والرياضيين بمفهوم المجموعة (وكانت قد انتشرت في نهاية القرن التاسع عشر نظرية ماكسوال في المجالات الكهرطيسية ونظرية المجموعات للرياضي الألماني كانتور (1845 - 1918م). ثم إنهم شعروا[73] أيضا -لأول مرة منذ وفاة هومبولت- أن التتبع التاريخي وإن كان ضرورياً -وأساس المنهج العلمي عند أكثرهم- فإنّه لا يغني الباحث إلى ما يحتاج إليه في عملية المقارنة وتصفح مراحل التطور نفسها وهو: نظرية عامة في اللغة ذاتها تتّضح بها مفاهيمها وتتحدد عناصرها وآلياتها إذ بدون نظرية مثل هذه يضطر الباحث إلى أن يرجع إلى تحديدات الفلاسفة والنحاة التقليديين لأنّه لا يتصور أن يبحث عن تطور الفعل في لغة من اللغات في زمان كذا إلى زمان كذا وهو لا يعرف ما هو الفعل وما هي صفاته المميزة له عن غيره. ثم إنّ التحرج العلمي يلزم عليه أن تكون المفاهيم التي يعالجها واضحة في ذهنه وأن يحددها لمن لا يعرفها تحديداً دقيقا لا يحتمل أدنى التباس. وقد أحسّ بذلك بالخصوص أنطوان ميي، فكان دائماً يصرح لزملائه وتلاميذه بأنّ اللسانيات (ويعني بذلك

---

72 - الأصل بالنسبة إلى عملية التحليل. فإن بهذه العملية يوصل إلى العناصر الأولية، وبما أن العلم لا يمكن أن يستغني عن التحليل (بل ولا علم بدون تحليل) فينبغي أن تعتبر، في المجموعة الأجزاء الأولية، وهذا نوع من المغالطة، لأن التحليل وإن كان الأساس في المنهج العلمي، إلا أنه غير كاف، إذ ما دمنا لا نعرف - بعد كشفنا للوحدات- كيف تتركب في المجموع، وما هي هيئتها فإننا نكون قد جهلنا أهم شيء في موضوع بحثنا. ثم زد على ذلك أن هذه الأحاسيس والصور الذهنية ما كانوا يعرفونها إلا عن طريق التأمل الباطني الشخصي؛ ثم ما الذي يضمن لنا أنها هي «ذرات» الفكر كما زعموا ؟ (لا ننس مع ذلك فضل التجريبيين: فإنهم نبهوا العلماء على أهمية الجانب الحسي والتجريبي في تكون الفكر، إلا أنهم بالغوا في ذلك حتى جعلوه كله متكونا من أحاسيس مُنضَمّة بعضها إلى بعض، ونسوا أن الفكر في ذاته هو قبل كل شيء عمل ونشاط وبناء، والأحاسيس إنما هي مادته (وليست الفكر، وإن كانا متلازمين، إذ لا عمل بدون مادة يقع عليها).

73 - قبل أن تظهر حركة النحاة المحدثين كان بريئال اللغوي الفرنسي يقترح الرجوع (مع استمرار الدراسة التاريخية) إلى النحو العام أو الفلسفي ومراجعته على أساس مشاهدة الظواهر اللغوية وتتبعها من خلال جميع اللغات الحية (وقبوله هذه التسمية ثم ذكره لبورورويال كمثال لهذا النوع من الدراسة يدل على أن نظرته إلى علم اللسان العام كانت مماثلة للتقاليد الفلسفية الفرنسية، وهذا هو بعينه ما يفارق به سوسور كل من تقدمه من أصحاب النحو العام الأرسطوطاليسي، فيما يخصّ النحو خاصّة. أمّا نظريته في تقابل الأصوات اللغوية فهي من جنس التحليل الأرسطوطاليسي للكائنات عامّة (التحديد بالجنس والفصل)

التطورية) محتاجة أشدّ الحاجة إلى أن يُعاد النظر في المفاهيم النحوية الوصفية التقليدية لتستبدل بمفاهيم نحوية أكثر منها دقة وموضوعية وأقرب إلى روح العلم «الحديث». وكان يسمى هذا الذي يعتبره قسماً ضافياً وتكميلياً فقط لعلم اللسان **باللسانيات العامة** Linguistique Générale. ويتمنى أن تكون بذلك شبه مقدمة عامة للدراسات اللغوية التاريخية. وهكذا أخطأ ميي الغرض ولم يكتب له أن يضع تلك النظرية المنشودة لأنّه لم يتفطن إلى أهميتها وإلى أنّها أخطر بكثير من النظرية التاريخية. وكتب ذلك على فرديناند دي سوسور كما سنراه فيما يلي.

ففي هذا الجو من الاستياء والسخط على أوهام الانضمامية ونقائص المنهج التطوري **ظهرت من جديد فكرة النظام الباطني أو الصورة والصيغة الناتجة عن التركيب الزائدة على مجموع الصفات الجزئية**. وتسربت ابتداء من السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر إلى أذهان بعض المفكرين اللغويين منهم وغير اللغويين[74]. ويجب ههنا أن نلاحظ أن كونت وماركس ودوركيم وغيرهم وإن كانوا قد تنبّهوا إلى أهمية مفهوم الكل وإنّه شيء زائد ومتجاوز لكل واحد من أجزائه فإنّهم لم يشيروا إلى الجانب الأخطر لهذا المفهوم: وهو النظم نفسه أي التأليف الذي يستلزم أن تكون لكل جزء داخل المجموعة صفات خاصة تشاركه فيها بعض الأجزاء وتغايره بها أجزاء أخرى، فباتّصافه بتلك الصفات تكون له مع كل واحد من الأجزاء الأخرى علاقة ونسب، ومجموع هذه النسب تسمى (في اصطلاح علماء هذا العصر) الصورة أو الصيغة (forme) أو النظام (système) وأطلق عليها فيما بعد لفظ البنية (structure) لأنّهم اعتبروا في التأليف البناء. وميي نفسه لم يلتفت إلى هذا الجانب الهام، بل الذي لفت نظره هو النظام كمجموع أجزاء متناسقة لا التناسق في ذاته كعامل له كيان على حدة، وبالأحرى تأثير في المجموع وفي أجزائه.

---

74 - نذكر منهم فون أهرنفلز (Von Ehrenfels : 1859 -1932م). وهو أول من جرد من علماء النفس مفهوم الكيشتالت: Gestal (الصورة الكلية) وطبقه على الظواهر النفسية. وتكونت بعده (1913م) مدرسة الـ Gestaltheorie أي مدرسة علم النفس الشكلي. ومن علمائها فرتهيمر (M. Wertheimer: 1880 - 1943م) وكوفكا (K. Koufka: 1886 -1941م) وكوهلر (W. Kohler: 1887م). وتبعهم في ذلك عالم آخر متخصص في الفيزياء: كورت لوين (K. Lewin: 1890-1947م). فطبق هذه المفاهيم على الظواهر النفسية الاجتماعية، وكل هؤلاء من الألمان الذين هاجروا بعد 1933م إلى أمريكا.

غير أنّ مفهوم الصورة (بحسب هذا التحديد) ليس هو المفهوم الوحيد الذي انتقلت به اللسانيات من النظرة التاريخية إلى النظرة الوصفية البنوية، لأنّ الالتفاتات إلى بنية اللغة يقتضي من الباحث لا الإمساك عن كل اعتبار تاريخي بل التمييز الصريح بين هذا الاعتبار وبين النظر في هيكل اللغة في وقت معيّن أي بصرف النظر عن العامل الزماني وأحداث التطور. وتحقيقا لهذا التمييز المنهجي بدأ الباحثون ممن ثار على جبروت النحو التطوري يبسطون آراءهم في ماهية اللغة وما تستلزم دراستها من مبادئ نظرية ومنهجية.

إنّ أول من وضح وحدّد ونظم هذه الأفكار الجديدة (بالنسبة إلى اللسانيات التاريخية) هو **فردينان دي سوسور اللغوي السويسري** (Ferdinand de Saussure: 1857- 1913)[75] الذي

---

75 – هذه نبذة من سيرته: ولد سوسور في جنيف في 1857م في بيت شريف امتاز فيه أكثر أفراده في العلوم الدقيقة والطبيعية (وكان لذلك أثر في تكوين سوسور). ودرس دراسته الثانوية حتى بلغ السابعة عشرة من عمره. وكان قد أظهر في هذه المدة نوقا عميقا للدراسات اللغوية. ثم دخل الجامعة وتابع فيها دروسا في مختلف العلوم لشدة تعطشه إلى العلم. وكان دائما يميل في نفس الوقت إلى الرياضيات وعلوم اللسان. وفي سنة 1876 قرر مصيره بذهابه إلى ليبتسيش والتحاقه بحلقة اللغويين الألمان. ودرس أولا على كورتينوس (وقد ذكرناه فيما سبق). وكتب عليه أن يشاهد شهادة عيان الخلاف الذي قام بين هذا الأستاذ وشبان اللغويين (النحاة المحدثين) فتعرف على بروجمان واستهوف وغيرهما. وكان يحضر مناقشاتهم ويساهم فيها ندا لند وهو ابن 19 سنة ! ورغم إعجابه بعلم الألمان وبدقتهم وتشددهم في إثبات الأحداث (وكان مخلصا في هذا الإعجاب) فإن طبعه الذي ركب عليه: عدم اطمئنانه إزاء الأقوال الجازمة وشمولية ميوله العقلية وصبوته إلى الكمال في جميع أعماله، جعله لا ينسجم بهؤلاء الشبان الألمان، وربما تكون قد خطرت له في ذهنه الفتي منذ ذلك الوقت تلك الأفكار التي ستلازمه طيلة حياته (ولم يرتح لها هي نفسها). وفي سنة 1878 أنهى تحرير الرسالة المسماة بـــ «رسالة في النظام الأصلي للمصوتات في اللغات الهندية الأوربية» (طبع في ليبتسيش في 1879م). ونال بها – في زمانه– شهرة عظيمة (اعترف كل العلماء بأنه لم يبلغ أي بحث مثل ما بلغه هذا التحليل من الدقة والعمق). ثم قدّم في 1879م أطروحته المسماة بـــ «استعمال حالة الجر المطلق في اللغة السنسكريتية» (طبع في جونيف في 1881م) وهو ابن 22 سنة. وفي سنة 1880م انتقل إلى باريس واستقر فيها حتى سنة 1891م. وعرض عليه بريئال – بعد أن لاحظ فيه هذا النبوغ العجيب، أن يحل محله في مدرسة الدراسات العليا. فحضر دروسه في أثناء مقامه كل الجيل تقريبا الذي سيشتهر في اللسانيات بعد ذلك في فرنسا. وفي كل هذه المدة لم يعتنِ في تلك الدروس إلا بالنحو المقارن والتاريخي. وكلف فيها بالإشراف على منشورات جمعية باريس اللغوية، وكان قد عين فيها نائبا للأمين العام. ثم في سنة 1891م قرر الرجوع إلى جنيف، وأنشئ في جامعتها كرسي التاريخ المقارن للغات الهندية الأوربية له خاصة، وبقي شاغلا لهذا الكرسي إلى 1896. ثم توارى عن أنظار الناس وترك كل شيء وأمسك عن الإنتاج (إلا العدد القليل من المقالات)، ولا ندري بالضبط ما كان السبب في ذلك (يظن بعض من أرخ له أنه كانت في حياته الخاصة مشاكل عويصة مؤلمة). وفي سنة 1907م بعد أن ألح عليه طلبته وسألوه أن يعرض عليهم أفكاره في اللسانيات العامة التي طالما كان يحدثهم عن أهميتها، فوعدهم بذلك ورجع إلى التدريس. ووفى بما وعدهم فانهالوا عليه بالسؤال الكثير وكتبوا كل ما كان يقوله بعناية شديدة لجدة ما كانوا يسمعونه، ولاستلابهم أيضا بقوة استدلاله وفصاحة كلامه ومهارته في التلقين. وكانت وفاة سوسور بعد ذلك بسنتين. ولم يستطع، إذ عاجلته المنية أن ينجز ما كان قد قرر من إنشاء كتاب يعرض فيه نظريته ؛ ونحن نعرف أنه قد عقد النية على ذلك منذ زمان بعيد بفضل رسالة بعثها إلى صديقه وزميله ميي (وكان هذا تلميذا له في باريس) في 1894م يقول فيها: «... لقد سئمت من كل هذا ومن الصعوبة التي ألاقيها غالبا في تحرير عشرة أسطر فقط في موضوع الأوصاف التي تشترك فيها الأحداث اللغوية. وأنا مهتم منذ زمان طويل بتصنيف هذه الأحداث تصنيفا معقولا، وتصنيف وجوه النظر التي نعالجها بها، فصرت ألمح أكثر فأكثر ضخامة العمل الذي يجب على الباحث أن يضطلع به حتى يشعر اللغوي بحقيقة ما يجريه من تحليل، وذلك برد كل واحدة من عملياته إلى الباب الذي تنتمي إليه... وسيختم عملي هذا بكتاب أحرره وأنا مكره على ذلك، أفسر فيه، بدون حماس، لماذا لا يوجد لفظ واحد يستعمل الآن في

سبق أن ذكرناه أكثر من مرة. ونستطيع أن نقول إنه أول من أظهر للناس -من دروسه- أهمية الدراسة البنوية بوصفه وتحليله لمفاهيمها ومناهجها واحتجاجه المقنع لصحتها وعظيم فائدتها، فأخرج للباحثين بهذه التحليلات خير ما يمكن أن يرجع إليه في هذا النوع من الدراسات. وذلك لأنّ سوسور وإن لم يكن اللغوي الوحيد الأوحد الذي اهتدى في زمانه إلى تلك المفاهيم فإنّه استطاع أن يجعل، قبل غيره، من هذه المعاني والأفكار، نظاماً فخماً دقيقاً منسجم الأطراف بعيد الغور. ولا يزال العلماء إلى حدّ هذه الساعة يتعجبون من نفوذ ذهنه وقدرته على توضيح المفاهيم الغامضة وتركيب المعاني المنفصلة المتباعدة، والتوفيق بين النظريات المتنافية. فأما الأفكار التي استوحى رسمها الأولي من معاصريه من أصحاب النزعة الجديدة[76] والتي لم يقتبسها من أيّ واحد وإنّما اتّفق أن وُجدت عند غيره لتوارد الأفكار فقط فإنّها لم تكن عندهم على هذا القدر العجيب من الوضوح والدقة والتجريد، ولم ترتبط عندهم هذا الارتباط العضوي الذي نشاهده في تحليلاته. ثم إن كان سوسور قد استوحى كما قلنا الكثير من هذه الأشياء من هؤلاء -ومن المفكرين القدماء أيضا - فإنّه انفرد- زيادة على الصيغة الجديدة التي صاغ بها الأفكار القديمة - ببعض المفاهيم والتشبيهات الرائعة[77].

لا بد قبل أن نشرع في عرض أفكار سوسور، من أن نتساءل عن المصير الذي كتب لهذه النظرية بعد وفاة سوسور وبالأصح بعد أن صدر الكتاب الذي جمعت فيه دروسه

علم اللسان (التاريخي) يمكنني أن أتبين فيه معنى من المعاني». وبعد أن اختفى سوسور تأسف هؤلاء الطلبة على عدم تنفيذه لمشروعه. فاتفق اثنان منهم بالي (Bally) وسيشوهي (Sechehay) على أن يجمعا استئادات الطلبة فنشراها بعد أن حرراها (تحريرا جيدا أمينا) في سنة 1916م بعنوان: «دروس في علم اللسان العام» (Cours de linguistique générale).

76 - منهم بودوان دي كورتوني (Baudouin de Courtenay: 1845- 1929م) وهو لغوي بولوني أقام مدة طويلة في روسيا يدرس في جامعاتها، ويبحث في لغاتها، وهو أول من أثبت حقيقة الحروف الفنولوجية، وسبق بذلك سوسور وتروبتسكوي. وكان له تلميذ ذكي يسمى كروسفسكي ساهم هو أيضا في إثبات هذه الحقائق (واعترف لهما سوسور نفسه). ويعتبر بودوان رائد اللسانيات البنوية. إلا أنه لم ينتبه إليه أحد من الناس حتى عرفه تروبتسكوي (كما عرف سوسور أيضا). ولا بدّ أن ننوه كذلك بما عمله عالمان جليلان ظهرا في ذلك العصر، وهما: السويدي أدولف نورين (A. Noreen) والسويسري أنطون مارتي (A. Marty) فقد اهتما هما أيضا بالدراسة الوصفية البنوية إلا أنهما لم يشتهرا في زمانهما. أما الآن فقد بدأ الناس يعتنون بما قالاه (وبالخصوص أنطون مارتي) عناية كبيرة.

77 - وذلك مثل الـ Syntagme والنسب التركيبية (Rapports syntagmatiques) ونظرته في المقطع (ومفهومي الـ implosion والـ explosion)، ومفهوم الـ sème والـ sémiologie وتسميته الدال والمدلول بـ signifiant وsignifié وكذلك مقارنته بين اللغة ولعبة الشطرنج (انظر فيما يلي ما اخترناه من كلامه).

الأخيرة أي بعد سنة 1916م. إن ما عرف عن هذه الأفكار أنّها لم تشتهر ولم يذع صيتها إلا بعد سنة 1929م. فما السبب في ذلك ؟ ألم يطلع الناس على هذا الكتاب إلا بعد هذه المدة الطويلة ؟ بلى فإنّ العدد الكثير من اللغويين عرفوا الكتاب واطّلعوا على ما فيه بمجرد ما صدر. ففي هذه السنة نفسها نشر ميي تعليقاً عليه وفعل ذلك أيضا جرامون (Grammont) ويسبرسن في سنة 1917م وماروزو في سنة 1923م وبلومفيلد في سنة 1924، إلا أنّ هذه التعليقات النقدية ربّما كانت السبب في خمول النظرية، لأنّها كانت غالباً سلبية للغاية إذ لم تلتفت إلى جوانبه الإيجابية، وكيف لا تكون سلبية ولا يكون أصحابها مستنكرين وهم (ماعدا بلومفيلد) أرباب الدراسات التاريخية، الراسخون في عقيدتهم بأن لا علم إلا في المنهج التاريخي. ونذكر بهذا الصدد كلاماً قاله جورج مونان، سديداً حكيماً. قال: «إنّها لعبرة لمن اعتبر وتأمل كوارث العلم عندما تتناقله الأجيال، أن يكون كتاب يقرأه الناس قراءة جيّدة ولا يدركون معانيه في أول الأمر إلا من حيث أخطأ أو ما يظن أنّه أخطأ وأن يكونوا بالخصوص قد أدركوها لا في مجموعها وفي داخل نظامها المفهومي، بل من حيث مخالفتها لنقطة من نقط العقائد الشائعة في زمانهم»[78]. وكان من حظّ هذه النظرية أخيراً، بل من حظ العلم أن انتبه عالمان من كبار العلماء في اللسانيات إلى ذلك الجانب الإيجابي بإدراكهما لمفاهيمها في داخل نظامها (كما يجب) كما تفطنا إلى أبعادها الحقيقية ومستتبعاتها في ترقية العلوم اللسانية وذانك العـــالمان هما الروسيان الأمير نيكـــولا تروباتسكوي (Trubetzkoy: (1890 - 1938م) ورومان ياكوبسون (R. Jakobson ولا يزال حياً). فقد كان وصل إلى موسكو في عام 1917م أحد طلبة سوسور يسمى كارسفسكي (S. Karcevski) وأطّلع اللغويين الشبان الروسيين على نظرية أستاذه فتحمّسوا لأنّها جاءت في الوقت المناسب، أي في الوقت الذي

---

78 - انظر كتابه عن سوسور، باريس 1968م، 74- 75. أما اللغويون الفرنسيون فيظهر أن ميي كان العامل الأساسي في عدم انتشار «السوسورية» في فرنسا (حتى عام 1945م!). والسبب في ذلك هو أنّ ميي لم يسمع من سوسور (وكان أستاذه في باريس كما قلنا) هذه الدروس، ولم تصل إليه أفكار جديدة ظهرت عندهم في تحليل اللغات انبثقت من كتاب «اللغة» لبلومفيلد (البيهافيورية اللغوية). ولم تصل إليهم أفكار سوسور إلا بعد (1947م). نشر في تلك السنة مقال في مجلة Word (3، ص1-31) بعنوان De Saussure's system of linguistics لولس (R. S. Wells) وعرف الأمريكيون بعد ذلك قيمة ما قاله سوسور، ويعترفون اليوم بفضله على اللسانيات.

كانوا بدأوا يتوقون إلى نظرية تفسر لهم نظام اللغة وآلياتها العامة بصرف النظر عن العامل التطوري (وذلك بعد أن تأثروا بكلام بودوان دي كورتوني وتلميذه كروسفسكي) (Kruszevski). وهؤلاء اللغويون الثلاثة هم الذين لفتوا نظر اللغويين الغربيين إلى خطورة أفكار سوسور وذلك في أول مؤتمر دولي عقده اللغويون في لاهاي سنة 1928. وكانوا قد بنوا نظرية جديدة في أسرار النظام الصوتي سموها الفنولوجية (وسنتكلم عنها في موضعها إن شاء الله). ومنذ ذلك الحين أقبل الناس على «الكتاب» وكثرت التراجم من اللغة الفرنسية إلى اللغات الأخرى[79]. وتعددت التعليقات عليه والمناقشات حول مقاصده ومعانيه إلى حد بعيد جدا.

إنّ النظرية التي وضعها وجردها سوسور تشتمل على عدد من المبادئ والاعتبارات العامة استخرجها من مشاهدته وتحليلاته لظاهرة التخاطب اللغوي وأداته التي هي اللسان والنظر في تلك الأداة وعناصرها وتركيبها من جهة ومن مقارنته بين مختلف النظريات اللغوية وطرق البحث التابعة لها التي عرفها الغربيون في زمانه من جهة أخرى. ويمكن أن نحصر أصالتها في:

- كيفية تحديده للعلاقة القائمة بين الدال والمدلول في الأذهان وفي الأعيان وبنائه بذلك نظرية للدليل اللغوي (Théorie du signe linguistique) تفسر ماهية الدلالة اللغوية إلى حد ما وإشارته بعد هذا إلى وجود علم أشمل من علم اللسان يتضمنه ويتضمن الأنظمة الدلالية التبليغية الأخرى، يسميه Sémiologie أي علم الأدلة (أو علم السيمياء).

- تمييزه الصريح -وكيفية احتجاجه لهذا التمييز- بين اللسان[80] (langue) (أو مجموعة منتظمة من الرموز) **تصطلح عليه الجماعة ويشترك في استعماله** جميع أفرادها وبين الكلام

---

79 - ترجم أول ماترجم إلى اليابانية (في 1928م وتأثيره على اليابانيين جد عظيم) ثم إلى الألمانية (1931م) والروسية (1933م) والإسبانية (1945م) والإنكليزية (1959م) والبولونية (1961م) والإيطالية (1967م). أما العربية فقد شرعنا في إعداد ترجمة له، بتعليقات على النص.

80 - أو اللغة بمعناها العام الذي رأيناه عند ابن جني (انظر مقدمتنا وكلامنا عن العلوم اللسانية عند العرب)، ولفظة langue بهذا المفهوم هو مجرد اصطلاح وضعه سوسور وترجمتنا إياه باللسان أو اللغة هي ترجمة حرفية، ولا تعني أن مفهوم سوسور هو نفس المعنى الذي تدل عليه لفظة «لسان» في العربية انظر الهامش الذي يلي هذا.

(parole)[81] **كتأدية فردية للسان.** وخروجه بعد ذلك إلى الحكم بأن اللسان بهذا المعنى أي بما هو قدر مشترك، هو صورة (forme) وليس بمادة (substance).

- **تحديده، بناء على هذا، لموضوع اللسانيات: هو اللسان لا لكلام في ذاته** وإن كان اللسان لا يظهر ولا يمكن مشاهدته إلا من خلال الكلام أي من تأدية كل فرد له ومن كيفية استعمال مجموع الأفراد له. أما الظواهر الخاصة بالكلام فدراستها وإن كانت ضرورية لدراسة اللسان إلا أنّها لاحقة بها وليست هي غاية علم اللسان في ذاته (ويعني بذلك الظواهر الفيزيولوجية والصوتية والنفسانية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية وغير ذلك مما هو سبب أو آلة أو محل لحدوث الكلام وتحوله).

- **توضيحه لمعنى الارتباط في قول العلماء** «إن اللسان نظام (Système) ترتبط فيه جميع أجزائه بعضها ببعض»[82] على أساس اتحاد الهويات واختلافها (identités et différences) أي أن العناصر اللغوية في ذاتها أمثلة تبقى هي في أذهان المتخاطبين وإن اختلفت تأدياتها وعلى أنّ كل واحد منها يكسب هويته عند المتخاطبين بمقابلته(opposition) لغيره (مبدأ التقابل)[83]. إلا أنّ الاختلاف - بهذا المعنى أي التباين والتقابل- هو جوهر النظام نفسه. فاللسان -كصورة- هو مجموع المباينات الحاصلة بين عناصره، وعلى هذا فكل عنصر فيه **كيان تبايني أو تفاضلي** (opositif , différentiel) **ونسبي** (relatif) **وسالب غير**

---

81 - ما يفعله ويحدثه المتكلم. وللفظة «كلام» في العربية معان أخرى أو بالأصح استعمالات أخرى غير هذه، كقول النحاة: «هذا كثير في كلام العرب أو ليس من كلامهم»: فالكلمة التي تؤدي معناها ههنا هي بالفرنسية langage أو actes de discours، ويعبر عن المقابلة: لسان / كلام باللغة الألمانية بـ Red / Sprache والروسية Mowa / Jezik. ويجب أن نلاحظ أيضا أن النحاة العرب كانوا يعبرون عن هذين المفهومين لا باللسان (أو اللغة) في مقابل الكلام، بل بكلمة وضع في مقابل الاستعمال، أو التأدية أو الأداء (وهم أول من بيّن الفوارق بينهما، وكانوا بنوا جميع تحليلاتهم عليها .(انظر كتابنا في علم العربية).

82 - كان أكثرهم يرددون هذه العبارة ولا يعرفون مضمونها، وبالأحرى أبعاد هذا المضمون.

83 - وذلك مثل حرف الباء مثلا، فإن هويته (ذاته في اصطلاح النحاة العرب) لا تظهر إلا بالإضافة إلى غيره من الحروف: فشفويته وشدته وعدم غنته الخ، ليس لها معنى خارج النظام الذي يرتبط فيه بغيره. فالصفة الأولى لها دلالة بالإضافة إلى التاء مثلا (لأن التاء ذولقية، غير شفوية) والثانية بالنسبة إلى الفاء، لأن الفاء رخوة، والثالثة بالنسبة إلى الميم، لأن الميم، وإن كانت شفوية أيضا إلا أنها ذات غنة. ومجموع الصفات المميزة (يسمي نحاتنا الصفة الذاتية «الفضيلة» قارن بكلمة: التفاضل)هي ذات الحرف عند ابن سيناء: الحرف هيئة عارضة للصوت يتميز بها عن صوت آخر مثله... في المسموع...».

موجب (négatif) من هذه الحيثية لأنه ينتج عن مقابلته لكل واحد من العناصر الأخرى ويتحصل وجوده بالنسبة إلى غيره ولا شيء يعتبر في نفسه إلا بالإضافة إلى غيره[84]. ومن ثم أيضا يرى سوسور أنّ الوحدات اللغوية هي بمنزلة الوحدات الاقتصادية كالعملة مثلا فالقطعة من النقود لا يمكن أن يكون لها وجود كوحدة اقتصادية، إلا إن أمكن أن تبادل بشيء آخر غير النقود وأن تكون لها صفات تقابل بها القطع النقدية الأخرى. وعلى هذا فإنّ كيانها هو القيمة (valeur) الحاصلة من معادلتها لأشياء غير مجانسة لها ومقابلة لأشياء أخرى مجانسة لها وكذلك هي الوحدات اللغوية لا يحصل كيانها إلا إذا أمكن لألفاظها أن تبادل، أي أن تسير بين الناس بما تعارفوا عليه لها من معان أو من دور في التمييز بين المعاني ولا يحصل هذا بالفعل إلا إذا اكتسبت كل لفظة مجموعاً من الصفات تقابل بها كل واحدة من الألفاظ الأخرى.

- **تمييزه الفاصل بين نوعين من الدراسة: الزمانية (diachronique) والآنية**Synchronique).) وهذا منه محاولة إصلاح للآراء الخاطئة التي أضلت أكثر اللغويين الغربيين منذ أن افتتنوا بمفهوم التطور كمفهوم إجرائي في تحليل الظواهر وقابلوا به المعيارية النحوية أو المنطقية العقيمة. فأداهم ذلك إلى أن نفوا صفة العلم عن كل تحليل يختص بوضع اللغة في زمان معين ويعدون ذلك مجرد وصف وإحصاء (لأنهم بانصرافهم عن كل ما ليس تعليلاً تاريخياً ما استطاعوا أن يعرفوا قيمة التحليل البنوي). على أنّ سوسور لا ينكر أهمية الدراسة التاريخية إنّما الذي ينكره هو أن تغلب النظرة التاريخية على النظرة التي تعمد إلى نظام اللغة في حالة من تطورها (état de langue)، أي أن يعلل كل شيء في هذا النظام بحوادث الزمان (وزد على ذلك عدم معرفة التاريخيين لحقيقة النظام اللغوي). ويبرر سوسور موقفه بأنّ النظام أو الاعتدال الوضعي الذي تتصف به اللغة في وقت معين لا يمكن أن يفسر بالعوامل التاريخية العارضة (accidentels) الجزئية إنما الذي تفسره هذه

---

84 - معنى السلبية أن العنصر اللغوي لا يكون بمحتواه وجوهره الإيجابي (= مضمونه المادي والنفساني) فهو من هذا الوجه سالب. أما في داخل نظام المتقابلات فيصير إيجابيا مع غيره وبغيره)

العوامل هو تحول جزئيات اللغة المادية أما انتظامها وائتلافها الذي تكتسبه فور فقدانها إياه فهذا راجع إلى أسباب غير عارضة، بل مستمرة وباطنية (أي غير خارجة عن نظامها الداخلي) وبها تتكون اللغة من حيث هي لغة.

هذه هي أهم أفكار سوسور وليس هذا الذي قدمناه للقارئ إلا لمحة وجيزة عنها. ولهذا رأينا أن نطلعه على نبذ من كلامه تمثل بكيفية محسوسة كل واحدة من هذه الأفكار. قال:

«يظن بعض الناس أنّ اللسان إنّما هو، في أصله، مجموع ألفاظ أي قائمة من الأسماء تطلق على عدد مماثل من المسميات... وفي تصورهم هذا نظر، من عدة وجوه: إنّه يفترض وجود معان جاهزة قبل وجود ألفاظها. ثم إنّنا لا نتبيّن به هل الاسم هو من جوهر صوتي أم نفساني... ويشعرنا أيضا أنّ ارتباط الاسم بالمسمى هو عملية في غاية البساطة.وهذا بعيد جداً عن الواقع... إنّ الدليل اللغـــوي لا يربط بين شيء ولفظ، بل بين مفهوم وصورة صوتية (image acoustique) (أي يربط لا الشيء المسمى باسمه الملفوظ بل مفهوم ذلك الشيء وتصوره في الذهن بصورة لفظه الذهنية). فهذه الصورة الصوتية ليست هي الصوت المادي لأنه شيء فيزيائي محض، بل انطباع هذا الصوت في النفس والصورة الصادرة عما تشاهده حواسنا. فهي حسية وإذا وصفناها بأنها «مادية» فمن هذا الوجه فقط وبالمقابلة بينها وبين الطرف الآخر في هذا التشارك أي المفهوم وهو غالباً أكثر منها تجريداً... فالدليل اللغوي إذاً كيان نفساني ذو وجهين[85]. يسمى دليلا (لغويا) المركب المتكون من المفهوم والصورة الصوتية (صورة اللفظ في الذهن)... ولكن نقترح إبقاء لفظة «الدليل» للدلالة على الكل واستبدال لفظتي «المفهوم» و«الصورة الصوتية» بلفظتي «الدال» و«المدلول» (Signifiant et signifié). وفضل هاتين التسميتين على الأوليين هو أنّ الفرق الذي يفصل بينهما الاثنين أو بينهما وبين الكل الذي يتضمنهما يظهر بهما ظهوراً جلياً... »[86].

---

85 - هذه الاعتبارات النفسانية هي عند سوسور من مخلفات النزعة النفسانية التي سادت في أوساط اللغويين والمناطقة والاجتماعيين في أواخر القرن التاسع عشر (والميل إلى تغليب وجهة نظر النفسية نشأ أيضا في ألمانيا وقبله النحاة المحدثون كذلك). ولكن سيحصل رد فعل على هذه النزعة المستبدة في بداية القرن العشرين، في أمريكا خاصة كما سنراه بعد. أما البنوية الحديثة فيحاول فيها العلماء دائما أن يجعلوا المفاهيم «الذهنية» (mentalistes) بين قوسين كما يقولون. وكثيرا ما انتقدوا على سوسور عبارته هذه.

86 - دروس في اللسان العام، باريس، 1966م، ص 97 - 99.

«إنّ العلاقة التي تربط الدال بالمدلول هي علاقة اعتباطية (arbitraire)[87] وسبق أن استعملنا كلمة Symbole (= الرمز) وعنينا به الدليل اللغوي أو على الأصح ما نسميه بالدال. ولكن في قبولنا لهذه التسمية بعض السيئات من جراء المبدأ الذي قدمناه. فمن مميزات الرمز أنه لا يكون أبدا اعتباطيا بالتمام. فإنه ليس فارغا بل فيه بين داله ومدلوله، شيء من الارتباط الطبيعي. فرمز العدالة الذي هو الميزان يستحيل أن يستبدل بأي شيء كان، عربة مثلا... ونعني بالاعتباطية أنّ الدال[88] غير مسبب (immotivé) أي اعتباطي بالنسبة إلى المدلول[89] الذي لا تربطه به أية علاقة طبيعية في الواقع.

«... إنّ فكرنا، إذا اعتبرناه في إطاره النفساني وجردناه عن الإبانة بالألفاظ فإنّه لا يكون حينئذ إلا كتلة مبهمة لا شكل لها. فإنّ الفلاسفة واللغويين اتّفقوا دائماً على أنّه لولا الأدلة لما استطعنا أن نميز بين فكرتين بوضوح وباستمرار. فالفكر إذا اعتبرناه في ذاته ليس إلا سديماً (nébuleuse) لا شيء يتحدد فيه بالضرورة. ولهذا فليست هناك معان مسبقة الوجود، ولا شيء يتميز منها قبل ظهور اللسان. وأمام هذه المملكة الحائرة فهل تكون الأصوات في ذاتها كيانات محددة سلفاً ؟ ولا هي أيضاً. فالمادة الصوتية ليست أكثر منها تثبتاً وتماسكاً... ثم إنّها ليست قالباً يتشكل به الفكر تشكلاً محتماً بل مادة لدنة تتجزأ هي أيضا أجزاء متمايزة لإمداد الفكر بما يحتاج إليه من الدوال... ولكن الدور الأساسي الذي تقوم به اللغة بالنسبة للفكر ليس هو خلق الوسيلة الصوتية المادية للتعبير عن المعاني بل التوسط بين الفكر واللفظ بحيث يفضي ارتباطهما لزوما إلى أن تصير الوحدات الناتجة عنه محددتين متوازيتين. فالفكر الذي هو في أصله شواش لا يجد بُدّا من أن يصير بَيِّنًا عندما يتجزأ. فليس هناك إذن أيّ تجسيد للمعاني وأيّة روحنة للأصوات... ويمكن أن تشبه اللغة أيضا بورقة

---

87 - الاعتباط هو في أصل اللغة «قتل شخص بلا جناية توجب قتله»، وكل من مات بغير علة فقد اعتبط (انظر لسان العرب، مادة عبط). وفي اصطلاح اللغويين العرب هو الحدث الذي ليس له علة يقال: حذف اعتباطي، أي حذف بغير علة أو سبب ظاهر. ويعبر علماء الكلام واللغويون الذين جاؤوا بعد سيبويه عن هذه العلاقة التي ليس لها علة «بعدم المناسبة بين الاسم والمسمى»، أو أنها ترجيح بدون مرجح.

88 - مرتبط به لا عن سبب - منطقي أو طبيعي (= لا تلازم عقلي أو طبيعي بينهما).

89 - نفس المصدر، 100 - 101.

يكون الوجه فيها هو الفكر والظهر هو الصوت. علماً بأنّه لا يمكن أن يقطع وجهها دون أن يقطع في الوقت نفسه ظهرها فكذلك اللغة لا يمكن أن يعزل فيها الصوت عن الفكر (أي المعنى) ولا الفكر عن الصوت، ولا يتوصل إلى هذا إلا بتجريد ذهني تكون عاقبته الانصراف إلى الدراسة النفسانية البحتة أو الصوتية المحضة. وعلى هذا فإنّ العمل الذي تقوم به اللسانيات يقع في المكان الذي تتلاقى فيه العناصر الخاصة بكل واحد من هذين القبيلين، **وهذا التركيب ينتج صورة لا مادة»**[90].

«يحصل بين جميع الأفراد الذين تجمعهم صلة اللغة شبه معدل: فكلهم يحكون - لا بالحرف دون شك - ولكن على الوجه الأقرب - نفس الأدلة مرتبطة بنفس المفاهيم. فما هو مصدر هذا التبلور الاجتماعي ؟ وأي واحد من الأجزاء التي تتكون منها دورة التخاطب يمكن أن يكون هو السبب ؟ فلا شك أنّها ليست كلها سبباً في إحداثه. أما الجزء الفيزيائي فيمكن من الآن أن يبرأ من ذلك لأنّنا عندما نسمع من يتكلم بلغة لا نعرفها، ندرك بالفعل الأصوات ولكن بعدم فهمنا لها نبقى خارج الحدث الاجتماعي. أما الجزء النفساني فلا يشارك في ذلك كله: فجانب التأدية لا دخل له لأن التأدية ليست أبداً من عمل الجماعة، بل من عمل الفرد دائماً والفرد دائماً صاحب أمرها. وهي التي نسميها parole» (= الكلام كفعل من أفعال الفرد).

«اللسان هو رصيد (trésor) يستودع في الأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمع واحد بفضل مباشرتهم للكلام، وهو نظام نحوي يوجد وجودا (تقديريا) في كل دماغ أو على الأصح في أدمغة المجموع من الأشخاص، لأنّ اللسان لا يوجد كله عند أحد منهم بل وجوده بالتمام لا يحصل إلا عند الجماعة».

«وبفصلنا اللسان عن الكلام، نفصل في الوقت نفسه: ما هو اجتماعي عما هو فردي، ما هو جوهري عما هو إضافي أو عرضي في بعض الأحيان».

---

90 - نفس المصدر، 155- 157. لأن المعاني مثل الأصوات هي مادة بالنسبة إلى الهيئة التي تجمعهما، ويتشكلان بها (وبهذا التشكل تتمايز عناصرهما).

«ليس اللسان من وظائف المتكلم بل هو أثر يسجله الفرد بكيفية سلبية»[91]... بخلاف الكلام فإنه عمل الفرد يتعمده ويتبصّر فيه؛ ويجب أن نميز فيه بين شيئين: التركيبات التي يركبها المتكلم عند استعماله لوضع اللسان (le code de la langue) للتعبير عن غرضه الشخصي والآلية النفسانية الفيزيائية التي تمكنه من إخراج هذه التركيبات.

«... اللسان نظام لا يخرج عن الترتيب الذي وضع عليه. وسنمثل لذلك بلعبة الشطرنج حتى نتبيّن هذا المعنى أحسن. فمن السهل، إلى حدّ ما، أن نميز ههنا ما هو خارجي عما هو باطني فانتقال هذه اللعبة من فارس إلى أوربا هو أمر خارجي بخلاف كل ما يخصّ النظام وقواعد اللعب فهو أمر باطني: إن استبدلت القطعة الخشبية بقطعة من العاج، فإن هذا التغيير لا يمس النظام: ولكنني إن نقصت أو زدت عدد القطع فهذا التغيير سيخل أيّما إخلال «بالنحو» الذي وضع عليه اللعب...»[92].

«إنّ آلية اللغة كلها جارية على اتّحاد الهويات واختلافها وما هذه الأخيرة إلا المقابل لتلك. وعلى هذا فمشكلة اتّحاد الهويات هي مشكلة عامة الوجود، ولكنها لا تتميز، من جهة أخرى عن مشكلة الكيانات والوحدات، وليست إلا صورة لها أكثر منها تعقيدًا، على أنّها مثمرة. وتظهر هذه الصفة جليا بالتشبيه بينها وبين بعض الأحداث غير اللغوية. فاتّحاد الهويّة يخطر بالبال إذا تكلمنا عن قطارين يلقب كل واحد منهما بإكسبريس «الثامنة و45د. مساء جنيف - باريس». يقلع أحدهما قبل الآخر بأربع وعشرين ساعة. فهذان هما في نظرنا إكسبريس واحد مع أنّ كل شيء فيهما: القاطرة والشاحنات والمستخدمين، يختلف لا محالة. وكذلك إذا هدم شارع وأعيد بناؤه قلنا إنّه نفس الشارع مع أنه ربّما لم يبق من حيث مادته أي شيء من الشارع القديم. فكيف يمكن أن يُعاد بناء شارع بأكمله ولا تزول عنه هويته؟ ذلك لأن الكيان الذي تتكوّن منه ليس مادة صرفة بل يتقوم من بعض الصفات لا تدخل فيها مادته العارضة كموقعه، مثلا، بالنسبة لمواقع الشوارع الأخرى. وكذلك الاكسبريس فالذي يقوم

---

91 - هذا ما سينتقده تشومسكي فيما بعد (سنتعرض لذلك عند كلامنا عن «التفريعية»).
92 - نفس المصدر، ص 29 - 31.

كيانه هو الساعة المعينة التي يقلع فيها ثم الخط الذي يسير فيه، وبصفة عامة كل الظروف التي تميزه عن الاكسبريسات الأخرى. فكلما حصلت نفس الشروط، حصلت نفس الكيانات... أما بالنسبة إلى اللغة فكلما نطقت بكلمة (Messieurs) (سادتي) فإنني أجد بذلك مادتها: لأنّ كل نطق مني لها هو تلفظ جديد وإنجاز نفساني جديد، فالرابط بين التأديتين لنفس الكلمة لا يعتمد على اتّحاد المادة ولا على اتّحاد تام بين الأغراض، بل على صفات أخرى ينبغي أن نبحث عنها وهي التي ستتبيّن بها عن كثب وبكيفية محسوسة ماهية الوحدات اللغوية الحقيقية»[93].

«... كل هذه المفاهيم التي تكلمنا عنها في هذه الفقرة (المفاهيم اللغوية) لا تختلف في جوهرها عمّا سميناه في موضع آخر valeurs»[94]. وسنَتَبيَّن بعد ذلك بالرجوع إلى تشبيه اللغة بلعبة الشطرنج. ولننظر إلى أحد الخيالة: هل هو في نفسه عنصر من عناصر اللعب ؟ طبعاً لا لأنّه في مادته وخارج خانته وبقطع النظر عن أحوال اللعب الأخرى، لا يمثل شيئاً بالنسبة إلى اللاعب ولا يصير عنصرا حقيقيا ومحسوسا إلا إذا قدر له تقديره وصار هو وذلك التقدير شيئاً واحدا. ولنفرض مثلاً أنّ أثناء اللعب يصاب بمكروه: يتلف أو يفقد: فهل يمكن تعويضه بما يعادله؟ أجل: وليس فقط بخيال آخر بل حتى بصورة مغايرة له تماما في الشكل ونقول مع ذلك إنّهما شيء واحد بشرط أن نمنحهما نفس التقدير (- أن ننزلهما نفس المنزلة).

---

93 - ص 151- 152.

94 - تدل هذه الكلمة الفرنسية (ومثلها Value الإنكليزية) في أصل وضعها على قيمة الشيء وقدره بوجه عام، وخصوصا أيضا للشيء الذي يقوم مقام شيء آخر في المعاملات، وتكون له نفس القيمة والتقدير. ولا يتم هذا إلا إذا أعطاه المتعاملون الصلاحية في ذلك (انتبه إلى العلاقة القائمة بين هذه الكلمة العربية وبين كلمة مصطلح أو اصطلاح). وذلك مثل أوراق النقد والسندات والشيكات وغيرها مما يصطلح عليه في المعاملات. ولا تتحدد قيمتها إلا بالنسبة إلى غيرها، وطبق سوسور هذا المفهوم على الوحدات اللغوية المحسوسة، لأن المعتبر فيها ليس هو مادتها بل مؤداها (fonction) أو مدلولها (signifié) المصطلح عليه (وكلاهما يسمى عنده valeur ولأنه لا يمكن أن يحصل اصطلاح إلا بالتكافؤ وبالتقابل. وقد أطلقنا على المفهوم العام لفظة التقدير (انظر تفسير الزمخشري للآية الكريمة «وخلق كل شيء فقدّره تقديرا» (الفرقان، 2) «.. قدّره وهيأه لما يصلح له»). وهذا التقدير يمكن أن يسمى صلاحية إذا اعتبرنا فيه القدرة على القيام بعمل بالنيابة عن شيء آخر وبتواضع الجماعة. أو المنزلة بالنظر إلى نزول الشيء منزلة غيره ومقابلته لشيء آخر أو الموقع والموضع (قارن هذا اللفظ بالوضع والمواضعة وقارنه أيضا باستعمال قدماء النحاة له) valeur position أما إطلاق لفظ الـ valeur على الوحدة نفسها فمأخوذ أيضا من استعمال الاقتصاديين. والذي شاع اليوم في العربية هو لفظة القيم (جمع قيمة). وكان من الممكن أن نقول في مثل système de valeurs نظام التقديرات، أو من المقدرات لأن هذه الأمور هي أشياء متصورة منوية في الوحدات المادية (الاقتصادية أو الدلالية) التي هي محلها.

وهكذا نرى أنّ مفهوم الاتّحاد الذاتي ومفهوم القدر (أو المنزلة) يحمل أحدهما على الآخر في داخل الأنظمة الدلالية - كاللغة مثلا - حيث يحصل لعناصرها توازن وفقا لقواعد معينة»[95].

«... تركب كل لغة ألفاظها بالاعتماد على نظام من العناصر الصوتية كل واحد منها يكون وحدة ذات حدود بيّنة ويكون عددها محصوراً حصراً تاماً. أما الوصف الذي يميزها فليس كما يظن، نوعيتها الخاصة بها والإيجابية بل عدم التباس بعضها ببعض. ولهذا فالحروف هي قبل كل شيء كيانات تباينية ونسبية وسلبيه. والدليل على ذلك هو الحرية التي يتمتع بها المتكلمون في تأديتهم للحروف ما داموا متمسكين بما يميّز بعضها عن بعض. ففي الفرنسية مثلا النطق بحرف r بجعلها لهوية (أي مثل الغين) وهو الاستعمال الشائع، لا يمنع بعض الناس، وهم كثيرون، أن ينطقوا بها بترديد طرف اللسان (مثل الراء)»[96]: وهذا لا يخل باللغة، لأنها لا تطلب إلا الاختلاف بين حرف وآخر ولا تطالب، كما قد يعتقد، أن يبقى الصوت على صفة واحدة لا يتغيّر. وأستطيع أن أنطق بحرف r الفرنسي مثل حرف ch الألماني الذي يحصل في مثل Bach وdoch[97]، «ولكنني لن أستطيع أن أنطق في الألمانية بـــ r مثل ch لأنّ هذه اللغة تعرف كل واحد من هذين العنصرين (أي تجعلهما حرفين اثنين لا حرفاً واحدا) فلا بُدَّ من أن تميز بينهما[98].

«علم اللسان السكوني وعلم اللسان التطوري (linguistique statique et linguistique évolutive)... إن هذا الانقسام الثنائي الحاسم غير موجود في أكثر العلوم الأخرى. فإنه ليس للزمان فيها تأثير خاص. فقد لوحظ في علم الفلك أنّ الكواكب تعتريها تحولات هامة ولكن

---

95 - نفس المصدر، 153 - 154.

96 - صوت الراء وصوت الغين لا يتمايزان في الفرنسية من حيث مؤداهما (أي من حيث صلاحية كل واحد منهما أو عدم صلاحيته للتمييز بين المعاني، وبالتالي للتمييز بين كلمة وأخرى). فإنهما وإن كانا من مخرجين مختلفين وذوَي صدى مختلف، فإن تعاقبهما في داخل الكلام لا يغير معناه بخلاف العربية فإنهما حرفان متمايزان فيها (أي في وضع العربية واصطلاحها، وذلك مثل: غاب/ راب).

97 - ch يمثل حرف الخاء (إذا جاء بعده o أو a أو u) في الألمانية. أما الفرنسية فلا تعرف هذا الحرف، فإذا اتفق أن ينطق المتكلم بهذه اللغة بخاء في محل الغين أي غين ناقص منها الجهر لم يغير هذا معنى الكلمة بخلاف المتكلم بالألمانية.

98 - نفس المصدر، 164 - 165.

هذا العلم لم يضطر من أجل ذلك أن ينقسم إلى نوعين من الدراسة. وكذلك علم طبقات الأرض فإنّ استدلالاته تسلط غالباً على ظواهر التعاقب الزماني (المتعاقبات الزمانية: successivités) ولكنها إذا تعرضت إلى الحالات الثابتة التي تكون عليها الأرض في وقت ما فإنّها لا تجعل من ذلك موضوع دراسة منفصلة انفصالاً تاماً. ويوجد أيضاً علم وصفي للقانون وتاريخ للقانون ولكنهما لا يتعارضان عند أحد من الناس. وكذلك التاريخ السياسي للدول فإنّه يسير كله داخل الزمان، وإذا تعارض مع ذلك المؤرخ لوصف عصر معين فلا أحد منا يعتقد أنّه خرج عن ميدان التاريخ. أما علم النظم السياسية فهو، على عكس ذلك، علم وصفي في جوهره، ولكنّه يمكنه أن يعالج في بعض المناسبات مسألة تاريخية دون أن تختلّ لهذا السبب وحدته».

«(وهذا كله) بخلاف... الاقتصاد السياسي وتاريخ الأحداث الاقتصادية فإنّهما يكوّنان دراستين منفصلتين تماماً في داخل العلم الذي يشملهما. فالعلماء بتقسيمهم هذا يمتثلون، بدون شعور منهم واضح، لضرورة باطنية. والحال أنّ مثل هذه الضرورة تحملنا على تقسيم علم اللسان إلى قسمين يخضع كل واحد منهما لمبدأ خاص به. والسبب في ذلك هو أنّنا نواجه ههنا كما يواجه العلماء في الاقتصاد السياسي (نفس المفهوم وهو) مفهوم التقدير (القيمة في علم الاقتصاد). ففي كلا العلمين الموضوع هو **نظام**[99] **تكافؤ بين أشياء تختلف أجناسها: في** أحدهما هو العمل والأجرة وفي الآخر هو الدال والمدلول.

«يكون من الأفيد، من غير شك، لجميع العلوم، أن تعتني أكثر بتوضيح المحاور التي تدور حولها موضوعات دراستها. يجب على هذا أن يميز في جميعها بحسب الصورة الآتية:

---

99 - يجب أن نلاحظ أن سوسور لم يستعمل لفظة structure إلا ثلاث مرات، واستعمل مع ذلك كلمة système 138 مرة (انظر مونان، مفهوم النظام عند انطوان ميي في مجلة La Linguistique 1961م، 1، ص 24 وما بعدها) فهذا يدل على أن سوسور لم يكن هو الذي أذاع لفظة structure (البنية) ولم يسمّ مذهبه بالـ structuralisme لأجل استعماله لهذا اللفظ. ويظهر أن أتباعه كانوا أكثروا من استعماله للدلالة على ما يسميه هو système، وافتتن كل من جاء بعدهم بهذا اللفظ (حتى صار ذلك «موضة» الآن في جميع ميادين الحياة اليومية!).

إنّ هذه المفاهيم وهذه الاعتبارات وقد مضى عليها وقت لم تَسلم كجميع النظريات الإنسانية من الانتقادات السلبية والإيجابية، إلا أنها أصبحت الآن النظرة الأساسية التي بنيت عليها اللسانيات وأصبحت المفاهيم الرئيسية التي تكون جوهرها ومادتها أشياء مسلمة عند جميع اللغويين، بل قلّما رأينا في تاريخ البشرية نظرية تذيع وتسير بين الناس مثل هذه التي أخرجها سوسور يأخذ هذا منها ويردّ، يرفض البعض ثم يرجع إليها نادماً خاشعاً، حتى البقية من التاريخيين المعاصرين وساقتهم تعترف لها بالفضل العميم وكادت نظرية تشومسكي الحديثة تثير مثل هذه الحركة، وكانت لها أصداء عظيمة بالفعل ولكنّها ولئن غيّرت مجرى البحث العلمي في اللغة إلا أنّها لم تقنع الكثير من الباحثين، وكأنّ نَفَسها الذي كنّا كلنا نعتقد أنه سيمتد ويطول، قد أصيب ببعض الكلل[101]. وهذا لم يحصل بالنسبة لمذهب سوسور في جملة آرائه إلى الآن ولذلك أسباب:

الأول هو أن نظريته تمسّ ذات اللغة وأوضاعها (وكان اللغويون في زمانه لا يعرفون إلا جزيئاتها ولا يهتمون إلا بتطوّر هذه الجزيئات) .

الثاني هو أنّه قال في ذلك القول الفصل، إذ لم يستطع أي واحد إلى الآن أن يبطلها إبطالاً كلياً أو يأتي بنظرية مخالفة وأصحّ منها في نفس الوقت. وكل من حاول أن ينقضها فإنّما اكتفى بنقض جزئياتها أو عنصر واحد من عناصرها أو تعرض لبعض أقواله الجازمة، فقصد فيها كيفية إطلاقه للقول لا صميم القول.

الثالث هو موافقتها لما كان ينتظره الجيل الجديد من الباحثين في بداية القرن العشرين واعتماد هذا الجيل حتى الآن (ولا يزال الكثير منهم على قيد الحياة) على أهمّ ما قاله سوسور.

السبب الرابع هو عدم مناقضة العلوم الأخرى لهذه النظرية بل بالعكس أيّدتها وأسندتها بتبنيها إياها، أو باقتباسها لبعض مفاهيمها أو بمجرد توافق جهات الاعتبار بينها وبين آراء

---

101 - ولا نرجو لها ذلك لأنها، حقيقة نظرية عظيمة إلا أنها تحتاج إلى من ينميها ويثريها، ولا يستطيع الآن -ولن يستطيع- اللغويون وحدهم (بمعلوماتهم وخبرتهم اللغوية الصرفة) أن ينموها إلا بالتعاون مع علماء النفس اللغوي والأخصائيين في الصوتيات النفسية والرياضيات الحديثة (إلا أن يكونوا ممن يجمع بين هذه العلوم مثل تشومسكي نفسه)

سوسور (وهذا راجع إلى ظاهرة توارد المعاني والمقاصد في داخل المجتمع الواحد). ولا تزال أفكار هذا اللغوي تغذي إلى يومنا هذا أقوال الفلاسفة والأدباء وعلماء الاجتماع وغيرهم على مستوى دول العالم.

على أنّ هذا لا يعني أنّها أفكار قد بلغت الكمال ولا شيء يمكن أن نضيفه إليها أو نزيله عنها فإنّها كغيرها من النظريات قاصرة ومحدودة[102]. ومهما بلغته من الصحة والعمق فإنّه لا بدّ أن تكون محدودة القدرة على تفسير جميع ما يخص اللغة وأحداثها. والذي استطاع أن يبيّن وجوه قصورها -لا خطأها- بقول فصل أيضا هو تشومسكي اللغوي الأمريكي الذي تعددت إشارتنا إليه منذ البداية. فإنّه لم ينقض المفاهيم التي ذكرناها ولا النظرة البنوية بصفة عامة (فهي من أرسخ نظراته) بل يعترف لنظرية البنويين ومتفرعاتها بفضل عظيم وهو تحديدها للعناصر الهامة التي يتكون منها موضوع اللسانيات كمفهوم الدلالة اللغوية ومفهوم نظام الأدلة ثم تمييزها الحاسم بين نظرة الباحث إلى هذه الأشياء في ذاتها ونظرته إلى تحول جزئياتها عبر الزمان مع جعل الأسبقية للنظرة الأولى. إلا أنّه يعتقد - ويبرهن على ذلك - أنها غير كافية لتفسير وتعليل ظاهرة التبليغ اللغوي في جملتها لأنّها تخص مظهر اللغة القراري الذي يتمثّل في الكلام بعد أن يحدثه المتكلم. فلا يمكن أن تكشف عن ديناميتها الباطنية[103] أي كيفية حصولها من القوة إلى الفعل أو بعبارة أخرى: كيفية استعمال

---

102 - ينبغي أن نفهم جيدا مغزى هذا فلا نقع فيما وقع فيه من التهافت أهل التشكك من المفكرين قديما، وبعض البسطاء من أهل ملتنا في زماننا، فنظن أن مصير النظريات العلمية كلها البطلان والزوال لما يظهر من انهيار بعضها على إثر البعض الأخر. وليس هذا صحيحا أبدا لأن النظريات الجدية غير الخيالية، أي العلمية الحقة، لا يمكن أن تبطل كلها. ولا تكون علمية إلا إذا اعتمدت على استدلال عقلي قوي وصياغة دقيقة لحججها ومسالك تفريعها هذا مع ارتباط مفاهيمها فيما بينها ارتباطا وثيقا وإسناد الواقع لأكثر اعتباراتها وتخميناتها. والذي يبطل فيها- لأنها، على كل حال من جنس الافتراضات (ولاستحالة البرهنة عليها في جملتها) - هو، بعد مرور برهة من الزمان شموليتها التي يمنحها إياها أصحابها (زيادة على بعض المفاهيم والاعتبارات الجزئية). ولا يتبين ذلك جيدا إلا بظهور نظرية جديدة تثبت عدم صلاحيتها لجميع الظواهر وتحاول في نفس الوقت أن تدمجها في نظام مفاهيمها بجعلها جزءا أو مظهرا خاصا من مظاهرها أو مرحلة تمهيدية لها. وبذلك فإن مستواها يكون أدنى من مستوى النظرية الجديدة لكون هذه أوعب منها وأشمل. وهذا يخص النظريات البحتة الحقيقية، وهي طبعا قليلة بالنسبة إلى الأراء الصادرة من ذوي النزوات والبدوات.

103- لم يلتفت سوسور ولا البنويون الذين جاؤوا بعده إلى هذا المظهر الهام. والذي منعهم من ذلك هو اعتقادهم بأن كل ما خرج عن بنية الألفاظ المفردة ونظامها فهو راجع إلى المفرد. فالجملة مثلا بما أنها تركيب لوحدات اللغة يقوم به الفرد فليست عنده «لسانيـــة» أي وضعية بل «كلاميـــة» (أي من جنس الأفعـــال الفردية ولم يكن متأكدا من ذلك). ولذلك قال سوسور بأن اللغة تنحصر كلها في اصطلاح التخاطب، فهي بذلك أثر يسجله الأفراد في ذاكرتهم بكيفية سلبية. وهذه عثرته حسب ما يزعم تشومسكي، ونحن نوافقه على هذا. وقد تنبه إلى ذلك لغويونا قديما وأجروا عليه أبحاثهم.

المتخاطبين لها أثناء إرسال الخطاب واستقباله. فمفاهيم سوسور جدّ ضرورية لتشخيص الوحدات اللغوية وتحديدها وبيان كيفية اندراجها في نظامها، إلا أنّه لا يمكن أن يتعدّى بها الباحث هذه المرحلة من البحث فهي إلى الوصف المجرد وتصنيف وتحديد الذوات اللغوية في داخل نظامها أقرب منها إلى تعليل تركيباتها في مدرج الخطاب وتفسير تفرع هذه التركيبات بعضها من بعض حتى يمكن أن «يعبر عن اللامتناهي من المعاني بالمتناهي من الألفاظ»[104]. وسنشرح ذلك بالتفصيل في موضعه إن شاء الله.

ينبغي الآن، قبل أن نختم هذا العرض التاريخي أن نشير إلى المدارس التي ظهرت بعد سوسور. وستكون إشارتنا لها وجيزة لأننا سنطيل الكلام عن اتجاهاتها عند تحليلنا - في الأبواب التالية إن شاء الله -لمضمون اللسانيات الحديثة والنتائج التي توصلت إليها. وأغلب هذه النزعات وهذه البحوث كانت امتدادا وتوسيعا لمذهب البنية اللغوية الذي وضع أسسه سوسور وبعض معاصريه ويمكن أن ترتب هكذا:

1) المدارس المنبثقة من مذهب سوسور مباشرة أو منه ومن النزعات الأخرى:

- **مدرسة جنيـــف:** تكونت من أتباع سوسور السويسريين: بالي (A. Bally) وسيشوهي (Sechehay) وهما اللذان جمعا ونشرا دروس سوسور كما قلنا. وكان لكل واحد منهما بحوث

ولما صار المتأخرون لا يدرك أكثرهم فحوى كلامهم، اختلفوا في هل «وضع الواضع المفردات والمركبات الإسنادية أو المفردات خاصة دون المركبات ؟» والذين اهتدوا إلى وجه الصواب منهم هم النحوي المغربي أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي (توفي في 606 أو 607 هـ وقل من يعرف فضله انظر. مقدمته المسماة بالقانون وشرحها للشلوبيني (توجد 3 نسخ منه في الأسكوريال برقم 2، 36 و190)، فإنه ممن أدرك جيدا مقاصد المتقدمين، ولا نظن أنه كان يدين في ذلك كله لما سمعه من شيخه ابن بري. وهو صاحب القول الذي استهل به ابن أجروم مقدمته: «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع» وكثيرا ما يردده معاصرونا دون أن يشعروا بأهميته بالنسبة إلى البحوث الحديثة). وتلميذه ابن معطي النحوي الجزائري (وكان الجزولي قد أقام مدة في مدينة الجزائر يدرس فيها) ثم ابن الحاجب (570- 646هـ) ثم أبو حيان الأندلسي. ونقل الزركشي ملخص أقوالهم. قال: «.. والحق أن العرب (المتكلمين الفصحاء) إنما وضعت أنواع المركبات، أما جزئيات الأنواع فلا. فوضعت باب الفاعل لإسناد كل فعل إلى من صدر منه، أما الفاعل المخصوص فلا..» (المزهر، 1 /45. انظر في هذا الكتاب ما نقله صاحبه عن هذا الخلاف). ويا حبذا لو استطاع سوسور في وقته أن يطلع على هذا الكلام !

104 - وسترى أن هذه العبارة نفسها التي أخذها تشومسكي (وهو نفسه يعترف بذلك) من هومبولت توجد بصورة أكثر تجريدا في كتاب الشفاء لابن سيناء، وكتب فخر الدين الرازي. والمصدر الأول للفكرة هم النحاة العرب (انظر كتابنا في علم العربية).